المدارس الفلسفية الاسلامية

تمهيد:

بعد أن تعرّضنا لنبذةٍ من الفلسفة الإسلاميّة، لا بأس بالإشارة إلى أهمّ المدارس الفلسفيّة التي سادت في الأوساط العلميّة الإسلاميّة، وتأثّر بها **الحكماء المسلمون**. وقد درج الباحثون في تاريخ الفلسفة لا سيّما الإسلاميّة على التعرّض لهذه المدارس العلميّة. وقد اتضحت الفروق بين هذه المدارس بشكل أكثر كلّما ترسّخت فلسفةٌ جديدةٌ وكثر مناصروها ومحاربوها، ممّا ساعد على البحث والتنقيح لإثبات ميّزات الفلسفة البديلة وكشف عيوب الفلسفة المناوئة. ومن أبرز تلك المدارس: **الفلسفة المشّائيّة، الفلسفة الإشراقيّة، وفلسفة الحكمة المتعالية.**

-المدرسة المشّائيّة وسبب التسمية:

أولاً: يُنقل عادةً لتسمية هذه الفلسفة بالمشّائيّة سببان رئيسان:

السبب الأوّل: رجوعهم الى أهل لوقين، وأفلاطون لاحترامه الحكمة كان يُعلّمها دائماً وهو في حال المشي، وتبعه على ذلك أرسطو، ومن هذا الباب سُمّي - والظاهر أنّه أرسطو وأتباعه بالمشّائين"

السبب الثاني: إنّ أتباع هذه المدرسة يتّبعون المنهج العقليّ - على ما سيأتي توضيحه - وهو أنّهم يسيرون من المقدّمات ليشكّلوا الدليل حتى يصلوا إلى النتيجة، وهم يرفضون أيّ منهجٍ آخر، ولهذا **المشي العقليّ** سُمّوا **بالمشّائين**. "وإذا أردنا أن نستعمل كلمةً وتسميةً تحمل في طيّاتها طريقتهم الفلسفيّة فلا يوجد أفضل من كلمة **الاستدلاليّين**".

ثانياً: المعلّم الأول:

استطاع أرسطو وهو تلميذ أفلاطون، وكبير فلاسفة اليونان، أن يُؤسّس مدرسةً فلسفيّةً عظيمة، سيطرت على التفكير البشريّ بشتّى اتجاهاته لفترة قرونٍ متواليةٍ، وما ذلك إلّا للأسُس المنطقيّة والعقليّة التي وضعها في قالبٍ علميٍّ دقيقٍ.

ويعود الفضل الكبير في تدوين هذه القواعد وإخراجها من فطرة التفكير البشريّ السليم إلى حيّز التقنين والقواعد، لتُشكّل علماً مستقلّاً، وقواعد عقليّةً يرجع إليها في فصل الخصومات، ويُبنى على أساسها الفكر الصحيح، والاستدلال القويم، يعود ذلك كلّه إلى أرسطو، ولذلك حاز لقب **المعلّم الأول**. ولم يزل كثيرٌ من قواعد هذه المدرسةِ التي أسّسها يُعمل بها إلى عصرنا الحاليّ.

ثالثاً : الفلسفة المشّائيّة في الأوساط الإسلاميّة:

انتقلت هذه الفلسفة من اللغة اليونانيّة إلى الأوساط العربيّة على يد المترجمين في عهد الترجمة الإسلاميّة. وكان من أبرز الفلاسفة العرب المسلمين يعقوب بن إسحاق الكنديّ، إلّا أنّ "دوره لم يتجاوز الشرح والتفسير بالنحو الذي يجعلها مطابقةً مع الأفكار الأساس في الدِّين الإسلاميّ".

وظلّت الحركة الفكريّة في الأوساط الإسلاميّة تتناقل أفكار حكماء هذه المدرسة، ترجمةً وشرحاً وتفسيراً، حتّى جاء دور **العلَمين الكبيرين، أبي نصر الفارابي الملقّب بالمعلّم الثاني، و أبي علي بن سينا الملقّب بالشيخ الرئيس**، وهو رئيس المدرسة **المشّائيّة** في الفكر الإسلاميّ. فقد استطاع هذان العَلَمان - بعد هضم الفلسفات والأفكار السابقة والمطروحة ونقدها - تطويرَ كثيرٍ من الأصول الفلسفيّة حتّى بلغت المدرسة المشّائيّة الرشد والكمال المطلوب.

لم يكن للفلسفة قبل هذين العلَمين كيان مستقلّ عن فلسفة أرسطو، وسائر الفلسفات المنقولة. لكن بالجهود الجبّارة التي بذلاها خرجت الفلسفة ككيانٍ مستقلٍّ في الأوساط الفكريّة الإسلاميّة، وروّجا لهذه الفلسفة بشكلٍ كبيرٍ جدّاً، ولذلك استحقّا بكلّ تقديرٍ هذه الألقاب التي أُضيفت إليهما.

رابعاً: ميّزات المدرسة:

إنّ لكلّ مدرسةٍ طريقةَ تفكيرٍ خاصّةً بها، وأسلوبَ بحثٍ يختلف عن المدارس الأخرى، لذلك بقواعدها وطريقتها وأسلوبها تُشكّل مدرسةً مستقلّةً. ومن الضروري جدّاً التعرّف على خصائص وميّزات كلّ مدرسةٍ على حدةٍ، ليمكن تمييزها وأتباعها عن الأخرى، وعلى هذا فالمدرسة المشّائيّة تمتاز بعدّة خصائص وميّزات:

الأولى: المنهج العقليّ الذي يُعتمد عليه في تحقيق المسائل **الفلسفيّة**، حتّى في المسائل المتعلّقة **بالأخلاق والسياسة**، فإنّ هذه المدرسة حاولت أن تستخرج مسائلها من المبادئ **العقليّة** عبر الطرق **المنطقيّة**. ومن هنا نجد أنّ المحور الأساس الذي يقوم عليه البناء الفلسفيّ لمدرسة الشيخ الرئيس هو حاكميّة المنهج العقليّ. ونجد من أهمّ الخطوط العريضة والعامّة التي تحكم هذا النوع من التفكير، هو الموقف **السلبيّ تجاه المكاشفة والشهود**. وهي تبتني على أنّ الطريق الوحيد للمعرفة هو **العقل**، وأنّ طريق إثباتها للآخرين هو **الاستدلال العقليّ لا غير**.

الثانية: إنّ الروح العامّة التي تحكم هذه الفلسفة هي الاهتمام **بالإلهيّات خصوصاً، وبأبحاث الفلسفة الأولى عموماً**. ويبدو ذلك واضحاً من خلال مراجعة أبحاث هذه الفلسفة، ومؤلّفاتها.

الثالثة: تحاول هذه الفلسفة أن تربط أبحاثها الفلسفيّة بقضايا **الإنسان**، لذلك نجدها تهتمّ بالقضايا **الأخلاقيّة**، وانتقلت هذه المسألة إلى الفلاسفة المسلمين، فجعلوا ذلك من صميم أفكار فلسفتهم الأساس. وهذا يعني وجود بعدٍ عمليّ طُعِّمت به الفلسفة النظريّة لمعالجة مشاكل الحياة الإنسانيّة.

خامساً: فلاسفة هذه المدرسة:

يُمكن أن نذكر أهمّ الفلاسفة المسلمين الذين ينتمون إلى المدرسة المشّائيّة، ونعدّ منهم **يعقوب بن إسحاق الكندي، أبا نصر الفارابي، أبا علي بن سينا، الخواجة نصير الدِّين الطوسي، ابن رشد الأندلسي، وابن باجة الأندلسي**، ويُعتبر الشيخ الرئيس هو الفيلسوف الكامل والبارز لهذه المدرسة.

والأعمّ الأغلب من كتب هؤلاء الفلاسفة يُبتنى على المنهج العقليّ والاستدلاليّ، ونذكر منها بعض كتب الشيخ الرئيس **كالإشارات والتنبيهات**، وقد شرح هذا الكتاب الشيخ الطوسي، وكتب: **الشفاء، التعليقات، المباحثات، المبدأ والمعاد، النجاة، وعيون الحكمة.**

سادساً: الموقف من الشريعة:

بما أنّ هذه الفلسفة قد تبنّاها هؤلاء الفلاسفة المسلمون، شرحاً وتكميلاً وتدعيماً وبناءً جديداً، فمن المفروض أن تأخذ هذه الفلسفة طابعها الإسلاميّ، وتكون موافقة في أصولها **العامّة** وخطوطها الكليّة **لأفكار الشريعة الإسلاميّة.**

لذلك كان أتباع هذه الفلسفة بصدد المطابقة بين المقولات **الفلسفيّة** التي يتبنّونها نظريّاً وبين معطيات **الشريعة** التي يعتقدون بها عمليّاً، وما ذلك إلّا لأنّهم كانوا عباقرةً مسلمين قبل أن يكونوا فلاسفةً مشّائين. ومن هنا لا يُمكن أن نعتبر هذه الفلسفة أنّها فلسفة عقليّة محضة ولا تعتني أبداً بالمطابقة بين محتواها وبين محتوى الشريعة السمحاء.

سابعاً: تقويم هذه المدرسة:

بعد اكتمال هذه المدرسة ونضوجها في الأوساط الإسلاميّة، يبقى السؤال عن مدى قدرتها على **المطابقة** بين العقل والشريعة. فهل استطاعت هذه الفلسفة أن تُثبت المعطيات الأساس للدين الإسلاميّ من خلال القواعد العقليّة والمنطقيّة التي تتبنّاها على مستوى النظريّة؟ وبتعبيرٍ آخر: هل استطاعت هذه الفلسفة أن تبني صرحاً فلسفيّاً مدعّماً بالعقل والبرهان يُوافق أصولَ الشريعة وموازينها؟

يمكن "القول: إنّ المدرسة المشّائيّة لم **يُحالفها التوفيق كثيراً** في هذا المجال، بالأخصّ في البحوث المرتبطة بعلم **النفس الفلسفيّ**، **وعلم المعاد**، وكذلك ما يرتبط **بالنشأت الوجوديّة** التي سبقت عالمنا **المشهود**، وغيرها من المسائل الأساس الكثيرة التي أخفقت في تحقيقها فلسفيّاً وعقليّاً".

ولعلّ أبرز أسباب هذا الإخفاق هو اعتماد فلاسفتها على القواعد **العقليّة** التي أسّسوها، ومعاملتهم لها معاملة النصوص المنزلة التي لا يُمكن المساس بها، وأنّها قضايا عقليّةٌ ضروريّةٌ لا تقبل الخطأ ولا النقد ولا التمحيص. ولذلك أخذوا بالتفكير **بالمعطيات الشرعيّة والدينيّة**، محاولين تطبيقها على هذه القواعد الفلسفيّة المعصومة بنظرهم، فوقعوا في إشكاليّة "**وورطة تأويل النصوص الدينيّة بما ينسجم مع النتائج العقليّة**".

فكأنّ التفكير الباطنيّ لهؤلاء الفلاسفة كان يعتمد على أنّ **معطيات العقل** لا تقبل **البحث والنقد**، بخلاف **المعطيات الشرعيّة**، حيث تقبل الأخيرة **التفسير والتأويل والتطبيق**، فابتعدوا بذلك عن ظواهر الشريعة، فواجهوا تيّاراً فكريّاً من المتكلّمين المسلمين يتّهمهم بعدم رعاية **حرمة ظواهر الشريعة**، واهتمامهم الشديد بحرمة مقولاتهم العقليّة والمنطقيّة.

ثامناً: المفاهيم الرئيسة:

1- سادت في الأوساط العلميّة الإسلاميّة بعض الفلسفات، وتأثّر بها الحكماء المسلمون، من أبرزها، الفلسفة المشّائيّة، الفلسفة الإشراقيّة، وفلسفة الحكمة المتعالية.

2- استطاع أرسطو أن يؤسّس مدرسةً فلسفيّةً عظيمةً، سُمّيت بالفلسفة المشّائية، سيطرت على التفكير البشريّ بشتّى اتجاهاته لفترة قرونٍ متواليةٍ. ولم يزل كثيرٌ من قواعد هذه المدرسةِ التي أسّسها يُعمل بها إلى عصرنا الحاليّ.

3- انتقلت هذه الفلسفة إلى الأوساط الإسلاميّة، وظلّت الحركة الفكريّة تتناقل أفكار حكماء هذه المدرسة حتّى جاء دور العلَمين الكبيرين، أبي نصر الفارابي، وأبي علي بن سينا، فبلغت المدرسة المشّائيّة الرشد والكمال المطلوب.

4- مميزات الفلسفة المشّائية: تميّزت الفلسفة المشّائية بأمورٍ:

أ- اعتمادها المنهج العقليّ في تحقيق المسائل الفلسفيّة، حتّى في المسائل المتعلّقة بالأخلاق والسياسة.

ب- اهتمامها بالإلهيّات خصوصاً، وبأبحاث الفلسفة الأولى عموماً.

ج- محاولة ربط أبحاثها الفلسفيّة بقضايا الإنسان، لذلك نجدها تهتمّ بالقضايا الأخلاقيّة، وهذا يعني وجود بعدٍ عمليّ طُعِّمت به الفلسفة النظريّة لمعالجة مشاكل الحياة الإنسانيّة.

5- المدرسة المشّائيّة لم يُحالفها التوفيق كثيراً بين العقل والشريعة، بالأخصّ في البحوث المرتبطة بعلم النفس الفلسفيّ، وعلم المعاد.

6- لعلّ أبرز أسباب هذا الإخفاق هو اعتماد أتباع هذه المدرسة على القواعد العقليّة التي أسّسوها، وتعاملهم معها على أنّها قضايا عقليّةٌ ضروريّةٌ لا تقبل الخطأ ولا النقد ولا التمحيص.